خلاصة الشعر

صباح القس/ بغداد

Sabah_ alkass@yahoo.com

عجبت لعروة العذري أضحى   أحاديثا لقوم بعد قوم
وعروة مات موتا مستريحا   وها أنا ميّت في كل يوم

هذان البيتان لمجنون بني عامر قيس بن الملوح المعروف بحبه لابنة عمه ليلى بنت المهدي وكنيتها أم مالك وتعرف أيضا بليلى العامرية.

في البيت الأول يذكر شاعرنا شريكه في هموم الحب الشاعر عروة وهو المعروف بعروة بن حزام.

وتذكر الكتب أن الشاعر قيس بن ذريح الشاعر العاشق كان قد مر بالمجنون وسلم عليه فتناشدا الأشعار وشكا كل واحد منهم إلى صاحبه ما يعانيه من الشوق والهوى، ثم حمّل المجنون قيسا رسالة إلى ليلى فنقلها إليها وأزال عنها ما قد أساءت فهمه من إحدى قصائده، ثم حملته مشاعرها إلى أبن الملوح. غير أنها لا تستطيع أن تلتقيه لأنها متزوجة، لكنها تشاركه ما هو فيه من حالة الحب.

وعروة بن حزام ربما تتشابه قصة غرامه بابنة عمه عفراء مع قصة المجنون. فقد تعلق بعفراء منذ الطفولة وتعاهدا على الزواج، وكان عروة يتيما وقد رباه عمه أبو عفراء الذي سعى إلى مباركة الزواج، غير أن عسر حال عروة وطمع أم عفراء في مهر عال جعلاه يترك الحي للبحث عن مال يسدد به المهر. لكن رجلا استغل الموقف فتزوجها وسافر بها، فساءت حالة عروة فسافر إليها وتحدث معها بعلم زوجها، فقد كان شريفا عفيفا. وعند العودة مات في الطريق.

ومعنى هذا إن قصص الحب في ذلك الزمن تكاد تتوافق في أحداثها ووقائعها وتفاصيلها.

يظهر لنا من خلال البيتين إن قصة حب عروة وعفراء قد سبقت قصة حب المجنون وليلى. لأنه يشير إلى أن قصتهما حيث يتناقلها القوم جيلا بعد جيل، ومعنى هذا أنها أصبحت من أحاديث التاريخ ومن الروايات التي يذكرها المتسامرون في جلساتهم وأمسياتهم.

ثم أن المجنون ربما يحسد عروة لأنه مات موتا طبيعيا في أثناء السفر رغم أنه يعرف أن الموت جاء بسبب شدة العشق لأنه مات وهو شاب.

لكن الحدث المهم هو فيما يتعلق بشاعرنا المجنون الذي لا يعرف متى وكيف سيموت، فهو يعرف أنه يعيش بصورة مضطربة ليس مثل باقي الناس، فهو هائم في الصحراء قليل الطعام بعيد عن الناس كثير التفكير منشغل العقل يحب ليلى لا يرغب الحديث مع أحد.

هذه الأمور جعلته يعيش حالة الموت في كل لحظة، وكثيرا ما كان يغشى عليه إذا ذكر اسم ليلى أو مر بها أو تحدث إليها.. فهو يعاني من الموت حبا وهو قمة التفاني في ذات الحبيبة.

في ذكرى الأربعين: نازك الملائكة.. غنائية للإنسان والحياة

بهرا. متابعات

أربعة وثمانون عاماً هي رصيد الشاعرة العراقية "نازك الملائكة" في بنك الحياة، فقد ولدت عام ١٩٢٣، وقد رحلت منذ أسابيع قليلة في القاهرة التي اختارتها مكانا للاقامة منذ عام ١٩٨٩، بعد أن تحولت "بغداد" مدينة الأحلام والتاريخ الى "شظايا ورماد".

ولأن روحها المرهفة كانت أشبه بروح طفل يبحث عن معنى للحياة كانت تجنح شاعرتنا (في سنواتها الأخيرة) الى العزلة، وهي من هي في عالم الشعر والتجريب، هي أحد رواد الشعر الحر في العالم العربي، لكنها آثرت أن تلجأ الى الماضي لتستعيد صور الطفولة، ولتستريح من عناء الشعر والمغامرة، الشعر الذي أخذ من حياتها ستين عاما كاملة منذ أصدرت ديوانها الأول "عاشقة الليل ١٩٤٧" ثم تبعته بـ "شظايا ورماد ١٩٤٩"، و"قرارة الموجة ١٩٥٧"، و "شجرة القمر ١٩٦٨" و "مأساة الحياة وأغنية للإنسان ١٩٧٠"، و "يغير ألوانه البحر ١٩٧٥"، و "للصلاة والثورة ١٩٧٨".

كانت نازك الملائكة من ذلك النوع الفريد من الشعراء الذين ارتبط شعرهم بقضايا اجتماعية، فكانت تكتب عما تعرف، لذا جاءت تجربتها الأولى في الشعر الحر، وهي القصيدة الرائدة "الكوليرا" عام ١٩٤٧ مرتبطة بحادثة انسانية خطيرة عبرت من خلالها عن مأساة الكوليرا التي اجتاحت مصر في تلك الفترة وراح ضحيتها آلاف المصريين الابرياء والتي تقول فيها:

سكن الليل

اصغ الى وقع صدى الانات

في عمق الظلمة، تحت الصمت، على الاموات

صرخات تعلو، تضطرب

حزن يتدفق، يلتهب

يتعثر فيه صدى الآهات

في كل فؤاد غليان

في الكوخ الساكن احزان

في كل مكان روح تصرخ في الظلمات

في كل مكان يبكي صوت

هذا ما قد مزقه الموت

الموت.. الموت.. الموت

يا حزن النيل الصارخ مما فعل الموت

اذن جاءت لحظة التمرد الاولى في عالم الشعر لديها مرتبطة بسياق اجتماعي، متزامنة مع الدعوة الى ما سمي وقتها بـ "الواقعية الاشتراكية"، وان كانت هذه الفكرة لدى نازك اكثر عمقا بما امتلكته من حس انساني عميق ظهرت بوادره في ديوانها الاول "عاشقة الليل" الذي جاء في الاطار التقليدي، حيث العمود الشعري والرؤية الرومانسية الحالمة، والتأثر برواد الشعر الكلاسيكي في ذلك الوقت امثال على محمود طه والذي كتبت عنه نازك الملائكة بعد ذلك كتابا خاصا.

قامت البنية المحورية في معظم قصائد "عاشقة الليل" على ما يمكن ان اسميه بـ "شعرية السؤال"، الذي يأتي كمحاولة للخروج من دائرة العزلة التي تضرب بسياجها حول الذات الشاعرة، وهنا نرى كثرة ورود مفردات "الليل - الشبح - السكون - الحيرة - الحزن - الحنين وغيرها" من مفردات تأخذ الذات الى مناطق يعلوها الجفاف الروحي مما يجعل الشاعرة تتساءل، في محاولة لاستنهاض هذه الذات:

عجبا، شاعرة الحيرة، ما سر الذهول؟

ما الذي ساقك طيفا حالما تحت النخيل؟

مسند الرأس الى الكفين في الظل الظليل

مغرقا في الفكر والأحزان والصمت الطويل

ذاهلاً عن فتنة الظلمة في الحقل الجميل

وربما القفزة الحقيقية جاءت مع ديوانها الثاني "شظايا ورماد" حيث تخففت - قليلا - من اللغة التقليدية، وامتلأت القصائد بنبرة متمردة - لكنها محصوبة - يغلب عليها حس رومنسي، فرأينا خطابا شعريا مستغرقا في الذاتية، حتى وإن حاولت الخروج الى خطاب الآخر نجد ان الذات تعود لتأخذ مكانها داخل النص ايضا، كما في قصيدة "غرباء" على سبيل المثال حيث نراها تقول:

أطفئ الشمعة واتركنا غريبين هنا

نحن جزءان من الليل فما معنى السنا؟

يسقط الضوء على وهمين في جفن المساء

يسقط الضوء على بعض شظايا من رجاء

سُميت نحن وأدعوها أنا

مللاً، نحن هنا مثل الضياء غرباء

وقد حاولت نازك الملائكة في بعض قصائدها النزوع الى دائرة اللحظة المعاشة، فكتبت قصائد اشبه بالحكايات اليومية، وتقترب - كثيرا - من "القصيدة المشهدية" كما في قصيدة "مرثية امرأة لا قيمة لها"، بما فيها من طاقة درامية:

ذهبت ولم يشحب لها خد ولم ترجف شفاه

لم تسمع الأبواب قصة موتها تُروى وتروى

لم ترتفع أستار نافذة وتسيل أسى وشجوا

لتتابع التابوت بالتحديق حتى لا تراه

إلا بقية هيكل في الدرب ترعشه الذكر

نبأ تعثر في الدروب فلم يجد مأوى صداه

فأوى الى النسيان في بعض الحفر

يرثى كآبته القمر

والليل أسلم نفسه دون اهتمام، للصباح

وأتى الضياء بصوت بائعة الحليب، وبالصيام

بمواء قط جائع لم تبق منه سوى عظام

بمشاجرات البائعين، وبالمرارة والكفاح

بتراشق الصبيان بالأحجار في عرض الطريق

بمسارب الماء الملوث في الأزقة، بالرياح

تلهو بأبواب السطوح بلا رفيق

في شبه نسيان عميق

وبالمثل نرى قصيدتها "مرثية يوم تافه" وغيرها من القصائد في دواوينها المختلفة والتي تراوحت - من ناحية البناء الشعرى - بين اطلاق العنان لأفق التجريب أحيانا، وبين العودة الى الاطار العمودي في مفارقة غريبة، وهى التي شقت عصا الطاعة للشعر التقليدي وفتحت الباب لجيل كامل من المجددين من الشعراء.

جاءت كتبها النقدية وعلى رأسها "قضايا الشعر المعاصر" و "سيكولوجية الشعر" و "الصومعة والشرفة الحمراء" لتؤسس للقضية التي شغلت الحقل الثقافي العربي في تلك الفترة وهي قضية "التجديد الشعري" حيث كانت المعركة على أشدها بين المقلدين والمجددين الذين كسروا رقبة البلاغة المتوارثة ليقدموا بلاغة اللحظة ومجازها الراهن.

شغلت قضية "الريادة الشعرية" مساحات شاسعة من التأويل والمعارك الفكرية والنقدية والشعرية حيث اعتبر البعض ان قصيدة "الكوليرا" لنازك الملائكة هي اول قصيدة تفعيلية تكتب باللغة العربية، والبعض يذهب بالريادة الى بدر شاكر السياب وقصيدته الرائدة "هل كان حلما"، وإن كانت نازك الملائكة اعترفت - بعد ذلك - بعد سنوات طويلة من دفاعها عن ريادة قصيدتها الى ان شعر التفعيلة كتب عام ١٩٣٢، وكانت تقصد بذلك المسرحيات الشعرية التي كتبها على أحمد باكثير.

ويمكن أن نضيف الى ذلك ديوان "بولاتلاند" للويس عوض والذي كتبه في فترة البعثة ١٩٣٧ وان كان لم ينشره الا متأخرا ١٩٤٨، وكذلك ديوان "خفقة الطين" لبلند الحيدرى الشاعر العراقى عام ١٩٤٦ أي قبل كتابة قصيدة "نازك الملائكة" بعامين كاملين.

وايا كان الأمر فإن قضية التجديد الشعري - من وجهة نظري - لابد ان تأخذ من جانب التجديد فى الشكل والمضمون معا.

فالكوليرا، كانت قصيدة رائدة، باعتبارها خروجا على الشكل النمطي للقصيدة العربية، وعلى مضمونها - بما فيها من رصد للحظة انسانية شديدة الوطأة.

فالمسألة ليست مسألة زمنية ولذلك من الممكن ان نعتبر قصيدة عبد الرحمن الشرقاوي "رسالة من أب مصري الى الرئيس ترومان" قصيدة رائدة من حيث مضمونها وجوها الدرامي، وكذلك ديوان "الناس في بلادي" ١٩٥٧ لصلاح عبد الصبور وديوان "مدينة بلا قلب" ١٩٥٩ لأحمد عبد المعطى حجازي، بما فيهما من رؤية مختلفة ولغة جديدة لم تكن مألوفة في ذلك الوقت.

وإن كانت الريادة الشعرية تعني الاستمرارية والثبات على مبدأ التجريب والمغامرة، فالشعر ليس قصيدة واحدة وإنما تجربة متكاملة.

رسالة

ك. ادم كوما/ الدنمارك

كان يوم الاحد صباحا وكانت الاجواء ربيعية جميلة تصحبها زخات مطر خفيف عندما وصل ساعي بريد الى قريتنا حاملا رسالة وظهوره المفاجيء أمام دارنا كان أمرا مدهشا حقا ومثيرا للتساؤل. ساورتني شكوك أول ما رأيته وبدأت اقلق ولكن أرتاح بالي قليلا عندما ادركت بأن شخصا ما من قريتنا يتبعه الى ان وصل الى عتبة دارنا. وضعت قبعتي على رأسي ونهضت لاستقبال الرجل القادم، لكن الكلب الوفي واليقظ دائما كان أسرع مني والذي كان يغمض عينا ويفتح الاخرى عند النوم ربما كان يتظاهر بالنوم.. وبدأ ينبح بحزم وبصوت أجش على الرجل الغريب كأنه اكتشف سرا خطيرا، ولكن زوجتي "مارتا" قاطعته وأعطته أمرا بان يسكت فأطاع بإيمائة رأس.

تقرب الرجل نحوي وبدون مقدمات وجه الي سؤالا "هل انت كيوركيس؟"، وانا اجبته بنبرة غضب "نعم، نعم انا العم كيوركيس". إنتابني الغضب لانه لم يظهر أي احترام لرجل في سني. وعلى كل حال حاولت أن اجد عذرا لجهله بعاداتنا وتقاليدنا.. ثم كأنما استعاد سطوته وقال بصوت عال كله تعجرف "جئت برسالة لك" وبدون توقف دفع يده اليمنى الى اعماق حقيبة كان يحملها وبدأ يفتش بداخلها.

وبعد ثوان سحب يده من تلافيف حقيبته واخرج قطعة ورق سميكة، ثم اخرج نظارته ووضعها على عينيه و بدأ يقرأ بضعة كلمات مخطوطة على الورقة.. وعند ذلك لمحت بضعة سطور مكتوبة بخط بدا لي كالاسطرنجيلي ولكن بعض حروفه كانت مختلفة.

بينما هو كان منشغلا، نظرت وركزت النظر الى حقيبته والتي كان لونها مشابها جدا للملابس التي كان العسكر يرتدونها عندما كان يطوفون قريتنا في منتصف الليل ويوجهون فوهات اسلحتهم وكلاشينكوفاتهم الى صدورنا. وغالبا ما كانوا يغرزون حراب بنادقم في أكياس الرز والطحين ولا يتركوننا الا بعد استجواب وتهديدات.

قلت في نفسي "أنا لم أتعود أن أتلقى رسائل!"، لكن حاولت أن أعصر ذاكرتي وأخمن ربما تكون من ابني. بدأت اسمع صوته وخفق قلبي حنينا وكادت عيوني تدمع ولكن حاولت ان أقفل قنوات الدموع. استيقظت من حلمي القصير وأما هو فدفع الرسالة مادا يده وغرسها بين يدي. وانا بدوري امسكت بالرسالة واحتضنتها مقربا اياها الى صدري. طلب رجل البريد مني كأس ماء مثلج، لكنني قلت له وبلهجة واضحة جدا "إسمع يا أستاذ.. نحن هنا ليس لدينا مثل هذا الماء، فنحن نشرب فقط من ماء العيون الطبيعية والحكومة قطعت الكهرباء عنا".

تمتم قليلا.. وقال بصوت ينم عن التذمر وعدم الرضا "بسببك وبسبب ابنك الهارب جئت مشيا على الاقدام لقريتكم.. ولا تتكلم عن حكومة الثورة ولا القائد.. هل فهمت". وطبقا لتفوهاته واقواله كان له معلومات عني وعن ابني.

ثم اضاف وبصوت عال "أنتم يا ناس ليس لديكم ماء بارد ولا طرق مبلطة، إذن ماذا تفعلون هنا؟! كيف تعيشون بين الصخور والتلول في هذه الجبال؟ انتقلوا الى المدينة.. للحضارة والتمدن.. ولمعلوماتك لدينا نحن قبعات احسن من قبعتك السوداء التيارية".

في الحقيقة اصبحت غاضبا جدا لدرجة ضربه، لكن تمكنت من تهدئة روعي لان فرحتي كانت اعظم وأكبر من غضبي وانفعالي، لذا اغمضت عيني وحاولت السيطرة على أعصابي، وعندما فتحت عيني لمحت حقيبته العسكرية تبتعد وظهره بعيدا عن وجهي.

وبصوت مبتهج ملأ بالسرور ناديت مارتا لتخرج من البيت ولترى ماذا حصلت عليه أخيرا.. خرجت مسرعة ووجهها يسبق قدميها، وعندما لمحت طرفا من الرسالة وانا ممسك بها، رمت الجواريب التي كانت تحوكها.. وفجاة بدأت تصرخ وبصوت فرح تماما كصوت فتاة صغيرة عندما يشترى لها ثوب جديد.

ومن أجل عدم إثارة فضول الجيران وتوجيه فرحتها، أسرعت وقلت لها بأن الرسالة قد تكون من ولدنا سركون، فطربت لسماع الخبر ولم تمر ثوان حتى بدأت دموع الفرح تغمر عينيها وبدأت تسقط كحبات مطر وشكلت أنهار صغيرة تجري في تجاعيد وجهها.

عفويا ناولتها منديلي الذي احمله معي دائما، وبدأت تمسح الدموع من على وجنتيها وتضرعت للسماء و شكرت المسيح ووعدت بانها سوف تشتري الكثير من الاشياء لأطفال وأرامل القرية بدون التفكير اذا ما كان لدينا مال كاف.

وضعت الرسالة في جيبها وذهبت مسرعة لتجلب معلم المدرسة حتى يقرأها لنا والتي كانت مكتوبة باللغة الانكليزية، لكن معرفتي بالانكليزية كانت قليلة ولم تكن كافية لاتمكن من قراءة الرسالة. وبعد ربع ساعة جاء المعلم وهو يدخن سيكارة، وبعد ان سلم وتصافحنا.. اخرج علبة من جيب سترته المبلل قليلا بزخات المطر وقدم لي سيكارة روثمن.

"دخنت هذه السيكاير ايام الشباب" قلت له "في زمن وجود الانكليز في العراق.. الانكليز الذين لم يحركوا ساكنا عندما هاجمتنا عساكر بكر صدقي في شهر أب عام ١٩٣٣ في سميل".

"يا عم كوركيس.. الرسالة هذه من ابنك.. من الخارج" اوقفته و قلت له "أنت فعلا أبن اصول وتربية.. ليس مثل هذا.. الذي ناداني بأسمي وبدون إحترام". فسألني الاستاذ "من هذا؟" قلت "رجل جاء الى قريتنا وجلب لي هذه الرسالة وقال انه ساعي بريد". فأبتسم الاستاذ وقال لي "هذا ليس ساعي بريد بل رجل أمن.

قلت له "تصور إنه قال لي "أهجروا قريتكم وانتقلوا الى المدينة والحضارة" فهز الأستاذ رأسه وقال متمتما "لقد دمروا حتى الحضارة وباعوا الاثار". قاطعتنا مارتا، وأما الاستاذ فأسرع وقال انها من أبنك ياعمة مارتا وبدأ يقرأ الرسالة ويشرح لنا ما جاء فيها.. ثم قال "ياعم كوركيس لقد بعث لكم ببعض الاموال.. ولكن لا أرى أي شيء" فقلت له "لابد ان ساعي البريد قد اخذها" فقال لي "تقصد الامن اخذوها.. انهم يراقبون كل شيء حتى انفاس الناس". "ماذا يقول بعد في رسالته عدا السلام" فقال الاستاذ "يقول انه بخير ويعمل ويطلب منكم ان تهتموا بالضيوف" فقلت له "اي ضيوف يا أستاذ؟!" فقال "سمعت بأن هناك شباب انتظموا في حركة سياسية"، عجبتني الفكرة ولكن قلت له "هل هم من الفارين والهاربين من الخدمة العسكرية" فضحك وقال "كلا ليسوا فارين، ويبدوا ان بعضهم قد إتصل بأبنك في الخارج". فقلت "اهلا بهم.. لدي بعض البنادق القديمة التي خبأتها في الكومة مع علب مليئة بالطلقات.. ولدي ايضا "جفتة" سوف أقدمها لهم كهدية".

"ولكن اولاد من هم هؤلاء.. وكيف نعرفهم؟!"، فقالت زوجتي "ربما بعضهم من اولاد اقربائنا من بغداد"، "لا أعرف" أجاب الاستاذ.. "ولكنني سمعت من رفاقنا في حركة الانصار اسماء بعض منهم، واعتقد انها أسماء حركية، ويقولون أن تنظيمهم أسمه زوعا". ثم انشغلنا بقراءة الرسالة وطلبنا من معلم قريتنا ان يقرأها ثانية.

---

7 آب

مالي أرى الأحجار حمراء
مالي اسمع بين الحين والحين
الف والف نداء
واهات مصدرها بكاء
مالي حينما ارنو حولي
ارى دم الإنسان ما زال نازفا
ارى كل شيء كما كان
رغم مرور الزمان
• • •
اسير بين الصخور
وفي فكري تأملات تثور
وتمزق احشائي صرخات شعور
وعواصف تصفعني، ورمال تعميني
وزلازل تسقطني، وموت يحييني
بين الحين والحين
• • •
آه، ماذا حل بي؟
هل تفجر في دمي بركان
ام صعقتني البروق وجرفتني الأمطار
ام ان شعور الأحجار
تغلغل في اعماقي
ام ان صدى عنيفا
مزق اوردتي وشراييني
فتبعته كالمجنون
وانا لا ادري ماذا اعتراني

ولماذا اسابق الزمن
وانا إنسان يعيش بلا زمان
ولماذا ابكي المكان
وانا هنا مكاني
• • •
وجلست عند قبر اثري
اتفحص جمجمة مهشمة
فإذا برنين يطرق باب سمعي
كانه صوت بشري
يعزف لحنا بلا وتر
يقول : أنا ضحية التتر
أنا يا من تحملني بين يديك
صوت الحق فوق شفتيك
• • •
ثمة سؤال ليس له سائل
يدور كدوامة هوجاء
في عيون الأبرياء
ثمة حائر لا يدري ما هو فاعل
ايبقى ابكمَ كالحجر؟
أم ينبغي أن ينفجر
ويظهر الغضب المستتر
كي لا يندثر
• • •
ورجعت من رحلة عبر العصور
ولم أرَ حولي سوى صخور
اين شعوري؟ هل مات الشعور؟
هل أصبح جثة في هذي القبور؟
فلا نفسي تثور
ولا بحاري تمور

البراكين تجمدت، البحار جفت
واما لي تحجرت، ويدي شلت
وقدماي تمشيان بلا حراك
اريد ان اموت هناك
بين اشلاء شعبي في كف الهلاك
وصوت يرعد من داخلي
اريد ان اهرب من جسدي
اريد ان احيا كالزمن الأبدي
• • •
جئت كي احييك ايتها الأحجار
وكنت بالأمس اسوار
تحيط بمدينة بناها ملك جبار
جئت لأزيل عنك هذا الأحمرار
فزورقي الصغير سيتحدى البحار
رغم الف موج واعصار
فرب هزة اسقطت جبلا
ورب كلمة كونت جمــلا
• • •

نينوس نيراري
كركوك ١٩٧٥

الشهداء يبتسمون للوطن

بهاء ألبير

شهدائنا تبتسم للوطن
وتطبطب أرواحها أكتاف
الزمن
تعاتب البشر
وتخفف عن الأطفال
الحرمان والوهن
أجيال نمت واندثرت
وجبالنا كساها الحزن

أصواتهم من القبور
تنادي.. أريحونا
وغيروا لون الكفن
ازرعوا الأمل
وأحبوا الحياة
وقاوموا المحن
تذكروا دماءنا
وأيام النضال

وأحلامنا بأرضنا
أن تكون جنةّ عدن
أكاليل الزهور تتجدد
في السابع من آب
والقرابين والبخور
تصبّر أرواح الشهداء
وتجدد العهود
وتقسم بأن غدا

سيكون أفضل من الأمس
والمستقبل للناظر أجمل
بالإرادة سنغير الواقع
وسنجعل الرياح تجري
بما تشتهي السفن
وسيبقى شهداؤنا
يبتسمون لأرض الوطن